المصـــــدر : الحياة
التـــاريخ : 20-01-2008 العـــدد : 16361
الصفحـات : 9 المسلسل : 57

جاء بوش داعية سلام فلسطيني - إسرائيلي وغادر داعية حرب ضد إيران حتى آخر خليجي!

المصـــدر : الحياة
التـــاريخ : 20-01-2008
الصفحـات : 9
العـــدد : 16361
المسلسل : 57

عادل مالك *

كان أسبوع الرئيس جورج دبليو بوش بامتياز بكل ما حفلت به جولته في عدد من دول المنطقة من صخب وضجيج وإثارة في غير اتجاه وفي أكثر من عاصمة عربية. وإذا كان من شيم العرب تكريم الضيوف وإحاطتهم بكل مظاهر الحفاوة والترحيب وفرش السجاد الأحمر فلا يعني ذلك بالضرورة أن يكون التفاهم تاماً ومتوافقاً بين طروحاته وتوجهاته وزعماء هذه الدول.

من المؤشرات الإيجابية لهذه الزيارة أنها حملت معها تساقط الأمطار وانخفاضاً ملحوظاً في درجات الحرارة مصحوباً بموجة قاسية من البرد الشديد، ما أرغم الضيف الأميركي على حمل المظلة الواقية من البلل.

لقد جاء الرئيس بوش وسط الانطباع بأنه داعية سلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، فإذا به يبدل في جدول الأولويات لتصبح المنزلة مع إيران هي الرقم الأول.

في المحطة الأولى من جولته كانت البداية مع إسرائيل التي أعدت له استقبال الفاتحين، مما حوّل الأنظار ولو قليلاً عن الضغوط التي يرزح تحتها رئيس الوزراء ايهود اولمرت على الصعيد الداخلي قبل أيام قليلة من نشر «تقرير فينوغراد» حول إخفاقات إسرائيل في حرب تموز (يوليو) ٢٠٠٦ على لبنان. وفيما يتصل بالموضوع المحوري الخاص بالعلاقات الفلسطينية - الإسرائيلية عاد للمفاخرة بأنه الرئيس الأميركي الأول الذي طالب بإقامة دولة فلسطينية مستقلة مطلقاً قبلته بقيام هذه الدولة قبل انتهاء ولايته بعد سنة. وبين خطاب وخطاب تحول الأمر إلى قيام معاهدة سلام بين الجانبين قبل نهاية العام الحالي. ومعاهدة السلام ليست بالضرورة أن تفضي إلى قيام الدولة بشكل تلقائي.

ثم انعطف إلى موقع آخر من خطابه إلى التعابير المفخخة كإشارته الواضحة إلى تكريس يهودية دولة إسرائيل وتجاهله التام للقرارات الدولية المتعلقة بالصراع العربي - الإسرائيلي وإسقاط حق العودة للفلسطينيين والتركيز على قيام موازنة البلايين لتعويض فلسطينيي الشتات، فكيف كانت الردود على هذه الطروحات؟ بيانات صادرة بلغة خشبية تكتفي برفض توطين الفلسطينيين، لكن هذا الرفض سيمنع حتماً قرض الأمر الواقع والذي سيتكرس بصورة تدريجية.

وتزامن وجود الرئيس بوش في المنطقة مع التصعيد الكبير للهجمات الإسرائيلية على قطاع غزة الذي أوقع العديد من الضحايا، وسط تعقيد الخلاف بين «فلسطينيي غزة» و«فلسطينيي رام الله» وفشل المحاولات التي جرت حتى الآن لتقريب وجهات النظر والعمل على فتح صفحة جديدة تبدأ باعتذار «حماس» عن «الانقلاب» الذي قامت به وفق تعبير محمود عباس كتمهيد لاستئناف الحوار. والاتصال الوحيد الذي جرى بين الطرفين الفلسطينيين كان بين الرئيس الفلسطيني ومحمود الزهار، أحد قيادي «حماس» معزياً باستشهاد نجله.

وتعبيراً عن الحال السيئة جراء البطش الإسرائيلي العدمر جاءت الأخبار تتحدث عن نقص في الأكفان!

ولهذا يمكن التساؤل عن مصير فلسطيني وإسرائيل وفق النهج الأميركي، ومصير «الدولتين الفلسطينيتين» وفي محاولة للتعبير عن اهتمامه ومتابعته لمسار المفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية، وعد بوش بالعودة إلى المنطقة في شهر أيار (مايو) المقبل، والمناسبة: للاحتفال بذكرى مرور ستين عاماً على قيام دولة إسرائيل.

أما في المحطات الأخرى من جولته فحض كل دولة خليجية بخطاب، وكانت أبوظبي الأقرب جغرافياً لإطلاق الخطب النارية ضد ايران. وذكر بأقوال سابقة له وحذّر من حدوث «محرقة نووية» بسبب إصرار إيران على المضي في تعزيز برنامجها النووي في تخصيب اليورانيوم، لكن خطابه في دولة الإمارات العربية المتحدة حمل قرع طبول الحرب. فيما اختارت المصادر الإماراتية أن تنأى بنفسها عن تبني ما ورد في خطاب بوش وخاصة اللهجة التصعيدية التي تضمنها، وأثرت هذه المصادر الإشادة بالعلاقات القائمة بينها وبين إيران والإصرار على اعتماد الحلول الديبلوماسية بدل التفكير في أي مواجهة عسكرية.

وحتى عندما تحدث واشنطن عن فرض المزيد من العقوبات على إيران لحملها على تغيير موقفها «النووي» يتضح أن الإقدام على مثل هذه التدابير له بعض الارتدادات السلبية على العديد من دول المنطقة والتي تتعامل تجارياً مع إيران. وهكذا بدا أن الرئيس الأميركي يريد محاربة إيران حتى آخر مواطن خليجي!

وعند انتقاله إلى المملكة العربية السعودية لقي بوش استقبالاً حافلاً وهو الذي يربطه علاقات مميزة مع خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز منذ أن كان ولياً للعهد. ويبدو أن العلاقات بين الرجلين لعبت دوراً كبيراً في تصويب العلاقات السعودية - الأميركية بعد كل ما اعتراها إثر أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١. ومن الأمور اللافتة أن عدداً من كبار موظفي البيت الأبيض ومستشاري الرئيس بوش كتبوا عبر الانترنت العديد من الرسائل عن الحفاوة التي قوبل بها وعن برنامج الزيارة الذي جمع بين الجانب الرسمي والجوانب الأخرى ذات الطابع والدلالات الإنسانية، وخاصة تلك الليلة التي استضاف فيها الملك عبدالله بن عبدالعزيز ضيفه في «الجادرية» حيث جرى تبادل الآراء بمعزل عن الموائد الرسمية، حتى أن باستطاعة الرئيس بوش أن يقول بعد اليوم أنه يجيد المشاركة في تقديم (العرضة) السعودية خاصة بالتعاون بين الملك وولي العهد الأمير سلطان بن عبدالعزيز وأمير الرياض الأمير سلمان بن عبدالعزيز.

يمكن إيجاز اللقاء السعودي - الأميركي في الرياض والمبنيت في مقر إقامة الملك عبدالله في الجنادرية وسط جو الصحراء الساحر بأنه كان الأكثر وداً وحرارة ودفئاً. وفي جلسة غير رسمية وبعد أن ارتشف «شفة» قهوة سأله الملك عبدالله: لماذا أنت شديد التفاؤل بقيام دولة فلسطينية قبل انتهاء ولايتك؟ وكان جواب بوش التأكيد على حرصه وعلى متابعته الدؤوبة لبلوغ هذا الهدف في موعده.

وكانت القاهرة المحطة الأخيرة والأقصر في جولة بوش (ثلاث ساعات) والأقل حرارة، وتبادل مع الرئيس حسني مبارك كلمات سريعة وخاطفة، علماً أنه لم يلتق الرئيس مبارك منذ أربع سنوات، وهذا ما أوضح الجفاء في العلاقات بين القاهرة وواشنطن ولذلك أسباب مختلفة ومتعددة وآخرها اقتطاع مئة مليون دولار من المساعدات الأميركية لمصر، إضافة إلى اختلاف في النظرة وإلى كيفية معالجة شؤون المنطقة وخاصة لجهة الحرب على العراق وكل تداعياتها المائلة حتى الآن والموقف من إيران ورؤية مبارك لعدم إغراق المنطقة بحروب جديدة.

وفي شرم الشيخ شن الرئيس بوش حملة عنيفة ضد سورية وإيران، لكن واحدة من المفارقات تلقي الضوء على تناقضات المواقف وازدواجيتها. فالرئيس الأميركي غاضب من سورية ومواقفها من حل الأزمة اللبنانية لكنه «راض» على الممارسات السورية باتجاه العراق من حيث الانحسار الواضح في التفجيرات وأعمال العنف والإرهاب مقارنة مع أوقات سابقة.

أما لبنان فكان بود الرئيس بوش أن يزور بيروت للقاء الرئيس فؤاد السنيورة لكنه فضّل تركيز اللبنانيين على المضي في انتخاب العماد ميشال سليمان رئيساً للجمهورية كما أوضح. وقد أثارت تصريحات بوش الداعمة بقوة لحكومة السنيورة مجموعة من ردود الأفعال التي أسهمت في تأجيج حالة الاحتقان السائدة.

في هذا الوقت نجح الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى في تأمين لقاء بين العماد ميشال عون ممثل المعارضة، والسيد سعد الحريري زعيم الأغلبية النيابية وبحضور الرئيس أمين الجميل، وطوال ما يزيد على ثلاث ساعات و٢٠ دقيقة لم يتمكن المجتمعون من إحداث «اختراق ما» ينقذ لبنان مما هو فيه وعليه.

وأفضل توصيف للحالة اللبنانية ما ورد على لسان العماد ميشال سليمان عندما قال: «أشعر وكأن بين يدي قنبلة موقوتة أعمل على تأخير انفجارها وتفكيكها ففي حال حصول الانفجار سيصيب الأذى الجيش والمقاومة والوطن».

ولا يزال الوضع في لبنان رهينة العديد من المؤثرات القابضة على مفاصله وشعار منازلة المرحلة - الحل العربي، بكل ما يحمله من تعقيدات هي نفسها تعقيدات علاقات النظام العربي ببعضه بعضاً. وفي هذا الصدد تؤكد دمشق على عدم الربط بين سعيها للمساعدة على بلوغ حل للأزمة اللبنانية وبين مؤتمر القمة العربية المقرر عقده في شهر آذار (مارس) المقبل.

* كاتب وإعلامي لبناني